**الأربعاء: 2023/11/22**
**التّوقيت: 13:10 – 14:20**
**عن بعد**

**الدرس رقم 04 نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني مفهومها، أسسها، منطلقات**

يعتبر عبد القاهر الجرجاني 400هـ أول عالم أخرج النحو من نطاق شكليته وجفافه وذكر أن القرآن الكريم معجزة في نظمه وحسن تأليفه كما قرن بين التنظير والتطبيق وعد واضع أسس المنهج التحليلي في الدراسات النقدية، دافع عن الشعر واعتبره أرض البلاغة الخصبة ثم عن النحو باعتباره ركيزة تقوم عليها نظرية النظم، فأخذ يوضح مواقع النظم وذلك بشرح نظريته وإثباتها وتعليلها.

وقد استفاد الجرجاني من جهود سابقيه من أمثال (الجاحظ، والباقلاني، والقاضي عبد الجبار وغيرهم) في تحديد مفهوم النظم وإرساء أسسه من جهة وربطه بالإعجاز القرآني من جهة أخرى.

## 1- تعريف عبد القاهر الجرجاني لنظرية النظم:

***لغة:**

بمعنى الجمع والنظام والربط والتأليف والذي يراد به ضم الكلمات المتخيرة على الوجه الذي يقتضيه المنطق. أي أن معنى النظم في اللغة يدور حول الاتِّساق والائتلاف والتناسب والتلاؤم بين عناصر الشيء الواحد، وقريبٌ منها معنى الاستقامة، وتُستعمل هذه المعاني في جانبي المحسوس والمعقول، فيكون المحسوس منها من باب الحقيقة، والمعقول مجازًا.

***اصطلاحا:**

النظم عبارة عن ترتيب المعاني في النفس وتنسيق دلالتها، وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النحو المتخيَّرة حسب ما يقتضيه العقل، ومن ثَمَّ النطق بالألفاظ بحسب ترتيب تلك المعاني في النفس.

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: "وأما "نظم الكلم"، فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقْتفي في نظْمِها آثارَ المعاني، وتُرتِّبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذًا نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النظم" الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتَّفق؛ ولذلك كان عندهم نظيرًا للنسخ والتأليف والصياغة، والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضِع عِلةٌ تقتضي كونه هناك، وحتى لو وُضِع في مكان غيره لم يَصلح".

فهو يرى أن النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض وأن تضع الكلام الوضع الذي يقتضبه علم النحو، وكذلك هو البناء اللغوي للجملة وفق ما يقتضيه المعنى لهذا جعل هناك فرق بين نظم الحرف والكلم وكذلك فرق بين النظم والنحو على النحو التالي:

**أ. الفرق بين نظم الحرف والكلم:**

* هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن المعنى.

* تقتضى في نظمها أثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعنى في النفس.

**ب. الفرق بين النظم والنحو:**

* النظم يكون في حسن التخيير والنظر في وجوه كل باب مثل الخبر والتوكيد والشرط.

* أما النحو فلا يحتاج إلى جهد ومعاناة أي أن تبدأ مهمة البلاغة عند نهاية مهمة النحو.

* النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات وقد ارتكز على ثلاثة دعائم:

أ- ترتيب المعاني في النفس بموجب أعمال العقل والفكر.

ب- مراعاة السياق والمواقع والتأليف ويقصد فيه ضم الكلام بعضه إلى بعض.

جـ- توخي معاني النحو أي وضع الكلام الذي يقتضيه علم النحو.

هكذا نجح الجرجاني في تطوير فكرة "النظم" واتخذها سبيلا إلى تحليل أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز معا.

إن النظم في جوهره هو النحو في أحكامه، الناظم يراعي أثناء كلامه قوانين النحو وقواعده المختلفة، كالتقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، ومعرفته لهذه القواعد وعدم الاخلال بها شرط أساسي لصحة النظم قول عبد القاهر: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأوصله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه".

ويؤكد أن النظم هو النحو عندما يقول: "إذا كان لا يكون النظم شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، كان من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم، ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه ..... النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم".

وعلى هذا الأساس فالمعايير النحوية هي التي تفصل بين النظم الصحيح والفاسد منه "هذا هو السبيل فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه". وكل تفاضل في قواعد النحو يجعل النظم أفضل بلاغة وجمالا "فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه".

ومن الأمثلة التي ذكر الجرجاني أن فساد النظم يعود إلى عدم توخي معاني النحو قول الفرزدق: **وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه**

الفرزدق هنا أقام البيت على صورة جزئية، تحتاج إلى أن يعاد نظامها، فكان الأصح أن ينقل كلمة (حي) ويضعها بإزاء كلمة (الناس)، ثم ينقل (يقاربه) بإزاء (حي)، فيكون الكلام:

"**وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه**".

ومثل لصحة النظم واستقامته بسبب توخي معاني النحو بأبيات للبحتري:

**هو المرء أبدت له الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا**

**تنقل في خلقـــــي سودد سماحا مرجى وبأسا مهيبـا**

**فكا للسيف إن جئته صارحا وكالبحر إن جئته مستثنيـا**

وحسن النظم فيها يعود إلى قواعد النحو التي اتبعها الشاعر وأهمها التقديم والتأخير في قوله (هو المرء أبدت له الحادثات)، كما أن تنكير كلمة (سودد) وإضافة الخلقين لها أسهما في حسن النظم.

ويستدل على أهمية النظم عندما يبين أن جمال الصورة البيانية وروعتها يعود إلى التركيب النحوي قائلا: "الاستعارة والكناية والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم، وعنها يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره".

مستشهدا بالآية الكريمة "**واشتعل الرأس شيبا**" [مريم:4] والتي يعتقد الناس فيها أن الشرف فيها يكمن في الاستعارة والحقيقة ليست كذلك لأننا قلبنا العبارة لتصبح واشتعل شيب الرأس لذهب ما فيها من روعة، مع أن الاستعارة لم تزل قائمة، فلم يبق إذا إلا أن تكون الروعة تكمن في العبارة من خلال اسناد فعل الاشتعال إلى الرأس، والمجيء بالشيب الذي له الفعل منصوبا، علما أن هذا التعبير يشحنها بدلالات لم تكن ممكنة لو أسند الاشتعال إلى الرأس يفيد بالإضافة إلى لمعان الشيب في الرأس الشمول والشيوع، ومن حسن النظم تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضاءة، لو صرح بالإضافة فقيل واشتعل رأسي لذهب كثير من حسنها.

إن نظرية النظم عند الجرجاني تقوم على التركيب النحوي في الكلام العادي أو الفني البليغ، لذلك ما لبث يصرح باستحالة الاستغناء عن قواعد النحو في تأليف الكلام، وهو ما جعل الجرجاني يدافع عن النحو ويدعو الناس إلى تعلمه.

**2- أسس نظرية النظم:**

نعني بأسس نظرية النظم أو أركان النظم أسس نظم الكلام، أي: ما هي المراحل التي تمر بها عملية إنتاج الكلام؟ والتي لا يمكن للكائن البشري الاستغناء عنها في صناعة الكلام وإنتاجه.

**أ/ ترتيب المعاني في النفس:**

فالجرجاني يرى أن المتكلم إذا فرغ من نظم المعاني في النفس أولا فإن الألفاظ تترتب في النطق ثانيا، كما أدرك أن ترتيب الألفاظ في النطق يجري على ترتيب المعاني في النفس، وأن العملية فكرية محضة وتتم في نفس الوهلة حين تخرج في صورة أدبية بليغة وتامة البيان.

يقول في **دلائل الاعجاز** "فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجري بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن".

إن القول بترتيب المعاني قبل الألفاظ جاء ردا على المعتزلة وعلى رأسهم الجاحظ وعبد الجبار القائلين بأن النظم هو نظم الألفاظ "ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان

ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم، أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر".

وأشار إلى الترتيب نفسه في **أسرار البلاغة** عندما قال "والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب". ثم "ذكر أن هذا الترتيب والتركيب إنما وقع في الألفاظ على وفق المعاني المرتبة في النفس والمنتظمة فيها على قضية العقل، يعني أن هذا النسق اللفظي هو صورة لنسق وراءه عقل انتظمه وأن بناء الكلام هو بناء فكر، وعقل وأن ناطقية الإنسان هي عقله وليست لسانه، وما دام هذا هو جوهر الكلام فيجب أن تقرأه من الجهة التي يقرأ منها وأن تتحسس فيه حركة العقل ونسق العقل، وأن ترى به، وفيه صفحة النفس التي صاغته لأن النسق اللفظي جسم صوت يجب أن تتجاوزه بعد إحكامه إلى ما وراءه من نسق فكري، وأن كل شيء في اللغة وراءه شيء في العقل، والنفس، حتى النغمة، والتوقيعة الصوتية، هي جرس نفس ولحن عقل وفكر، لا يجوز أبدا أن نتعامل مع الكلام شعرا أو بيانا على أنه شقشقة لسان لأن هذا إهذار لحقيقته، ولا بد من أن نتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس".

إذا المعاني المرتبة في النفس ليست المعنى الذي هو قسيم اللفظ، ولا المعنى القاموسي، أو الدلالي الذي يشمل عليه اللفظ، وإنما هو المعادل الذهني للمعاني النحوية، يقول أحمد حسن صبرة "ولا يقصد عبد القاهر من المعاني العامة للكلام، أو المعاني العجمية لألفاظ اللغة، وإنما يعني المعنى النحوي الذي يكتسبه اللفظ في السياق والعلاقات الناشئة بين الكلمات في السياق (التأليف)"، علما أن المعاني النحوية ليست المعنى الخام، وإنما المعنى الخاص المصور الذي تشكل في النفس ونظم فيها نظما خاصا والذي يوفر للمتكلم إمكانية التميز في أسلوب تعبيره والاختلاف عن غيره في طريقة نظم الكلام.

**ب/ التعلق النحوي:**

تحدث الجرجاني عن التعلق النحوي حين قام بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

1. تعلق اسم باسم بأن يكون خبرا أو حالا أو صفة أو بدلا أو تمييزا أو مضافا.
2. تعلق اسم بفعل كأن يكون فاعلا أو مفعولا بأنواعه أو خبرا لكان أو حالا أو تمييزا.
3. تعلق الحرف بهما

ويتضح من هذا التقسيم استحالة تعلق فعل مع فعل أو حرف مع آخر.

إن التعلق بين الكلمات بضمها إلى بعضها هو العملية الاسنادية للمعاني النحوية المرتبة في النفس وهو شرط ضروري لحصول النظم. ومن هنا كانت الكلمات المفردة دون إسنادها نحويا إلى غيرها خارج دائرة النظم. ويجب الإشارة في هذا السياق أن التعلق عند الجرجاني له مستويات: مستوى يقف عند الصواب ومستوى يرقى إلى بلاغة الخطاب.

يعلق عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي عن هذين المستويين قائلا: "والحقيقة أن عبد القاهر يفرق في كلامه بين نوعين من الصواب في الكلام والمعاني، الأول ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالصواب النمطي أو الصواب النحوي، والتالي هو ما حقق ذلك الصواب وزاد عليه بحسن الصياغة، وهذا الثاني هو الجدير بأن يستدرك في نظر الجرجاني وفي نظر البلاغيين قاطبة كذلك". وعليه فالمستوى الثاني هو المستوى الفني البلاغي الراقي وما يقع فيه من عدول أو مجاز يكونان مضبوطين بقواعد نحوية.

لقد استعمل الجرجاني لفظة التعليق ليشير إلى التأليف والصياغة والبناء والوشي والتخبير والنسخ بين أجزاء الكلم كلها ألفاظ من جنس التماسك والانسجام الواقع في الكلام الواحد الناتج عن تعالق معانيه بتناسق ألفاظه بعضها ببعض داخل مقام مشترك لا ينبو من فرقة.

**ج/ تخير الموقع:**

يقرر عبد القاهر الجرجاني أن اللفظة المفردة لا فصاحة لها ولا مزية حتى تضم إلى أخواتها في تأليف دقيق وعلى نحو مخصوص، ولأن التعلق ركن أساسي في نظرية النظم، فإنه يجب أن يراعي موقع الكلمة من بين أخواتها؛ أي لكل مكان لفظه المناسب، بحيث لو حول ذلك اللفظ من مكانه، أو أزيل عنه اختل النسق اللغوي وذهب رونق النظم وجماله "وإذا كان هذا كذلك فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إليها إلا بضم كلمة إلى كلمة ... وهل يقع في وهم أحدهم –وإن جهد– أن تتفاضل المفردات من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية؟ ...وهل تجد أن أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها".

ومن ها هنا لا يكون اللفظ إلا وعاء يتشكل به المعنى، وليس له أي فاعلية جمالية للنص مهما كانت في تناسق أصواته وصحة معناه مفردا، كما لا يمكن أن يكون به شكل من الإعجاز لوحده وهذا ما يؤكده عبد القاهر "واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيها يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره، ونفيل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ويجعله الأصل و العمدة".

أكد عبد القاهر الجرجاني أهمية المعنى من خلال ما أثبته في أن البلاغة لا يمكن أن تكون إلا في المعنى دون اللفظ، وبالتأليف دون اللفظة المفردة من خلال عملية تأويل النص الأدبي. يقول الجرجاني: "واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا أو تحول كلمة من مكانها إلى مكان آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر ويفسرون البيت الواحد عدة تفاسير".

إن الكلمة المفردة لا قيمة لها، ولا يمكن إدراك جمالها وفصاحتها إلا من خلال موقعها في النسق التركيبي وتناسق معناها ليتلاءم مع معاني ما يسبقها وما يأتي بعدها من كلمات، يتضح إذن أن معيار اختيار موقع الكلمة في النظم يقوم على ملاءمة معناها لمعاني الكلمات الأخرى حتى يرتقي النسق اللغوي لجملة ما إلى درجة عالية من البلاغة، فالألفاظ المفردة لا مزية فيها وإنما تعليق بعضها ببعض وجعل بعضها سبب لبعض وتأليفها وترتيبها بحسب ما يقتضيه علم النحو هو المزية وحسن السبك والانسجام.

**د/ معاني النحو:**

يشرح الجرجاني الوجوه النحوية وفروقها التي يجب على الناظم معرفتها لأنها توفر له إمكانية توظيفها في بنية النظم بوصفه تمثيلا للأنساق النحوية والمعاني النحوية "وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج... فلا ترى كلاما قد وصف بصفة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل نية إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه".

يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن حسن النظم آت من جودة التصرف في قواعد النحو، وأن رداءته إنما تأتي من سوء التصرف فيه "وإن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟ واعلم أني لست أقول: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا، ولكني أقول: إنه لا يتلق بها مجردة من معاني النحو، ومنطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها، كالذي أريتك".

يمكن القول من خلال هذه الأسس أن نظرية النظم الجرجانية نحوية بامتياز تقوم على المقدرة (الكفاءة) النحوية التي يجب أن يمتلكها المتكلم ليس من أجل استقامة النظم العادي وصحته بل في تفاضل الأنساق اللغوية وتفاوت حسنها وبلاغتها، ولذلك كان اهتمام الجرجاني منصبا على النحو النسقي الذي يعالج تركيب الجملة بدلا من الحركة الإعرابية على آخر الكلمة.

**3- خصائص نظرية النظم:**

إن نظم الألفاظ يجب أن يقترن بترتيب المعاني، لأن المعاني هي الأساس الذي يجب أن يراعى عند نظم الكلام، ثم تأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني كما قال الجرجاني "أن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب". وهي على النحو التالي من الأسس: (النظم، الترتيب، الموقع، التعليق، الصياغة) والتأليف هو النظم.

من خصائص النظم عن الجرجاني هي:

- حسن الاختيار لأصوات الكلمة.
- تعليق الكلمة في ذاتها.
- تعليق الكلمة بما يجاورها وليس ضم الكلمات كيفما جاء.
- مراعاة الموقع النحوي الأصيل حسب ما تقتضيه بيئة العربي.
- مراعاة المعنى المباشر (السطحي) والمعنى غير مباشر (العميق).

**4- سبب إنشاء نظرية النظم:**

1- إثبات إعجاز القرآن الكريم عن طريق نظمه.

4-رغبة عبد القاهر الجرجاني في تصحيح المفاهيم الخاطئة السائدة عند كثير من الناس عن علم البيان وعن الشعر والإعراب.